واعلمْ أنّ َ من الكلام ما أ َنت َ تعلمُ إ ِذا تدبّ َرت َه أ َنْ لم يحتجْ واضِعُه إ ِلى فكرٍ ورويّةٍ حتى انتظم َ له . بل ترى سبيل َهُ في ضمّ َ بعضه ِ إ ِلى بعضٍ سبيل َ م َنْ ع َمد َ إ ِلى لآلٍ فخرط َها في سلكٍ لا يبغي أكثَر َ من أن يمنع َها التفرّ ُق َ وكمن ن َضَد َ أشياء َ بعضَها على بعضٍ لا يُريدُ في ن َضْده ِ ذلك َ أن تجيء َ له منهُ هيئةٌ أو صورةٌ بل ليس إ ِلا أن تكون َ مجموعةً في رأي ِ الع َين . وذلك إ ِذا كان معناك َ معنى لا يحتاجُ أن تصنع َ فيه شيئاً غير َ أن تعطف َ لفظا َ على مثله ِ كقول ِ الجاحظ : " جنّ َبك َ اللهُ الشّ ُبهة َ وعص َمك َ من َ الح َيْرة وجع َل َ بين َك َ وبين َ المعرفة ن َس َباً وبين َ الص َّدق ِ س َبباً وحبّ َب إ ِليك التثبّ ُت َ وزيّ َن َ في عينك الإ ِنصاف َ وأذاق َك َ حلاوة َ التّ َقوى وأشعر َ قلب َك َ ع ِزّ َ الحقّ وأود َع َ صدر َك بَر ْد َ اليقين وط َر َد عنك ذُلّ َ اليأس ِ وعرّ َف َك ما في الباطل ِ من َ الذلّ َة وما في الجهل من القِلّة " . وكقول ِ بعض ِهم : " ِ د َرّ ُ خطيبٍ قام َ عندك َ يا أمير َ المؤمنين ما أفصح َ لسان َه وأحس َن بيان َه وأمضى جَنان َه وأبلّ َ ريق َه وأسهل َ طريق َه " . ومثل ِ قول ِ النابغة ِ في الثّناء ِ المسجوع : " أيُفاخِر ُك الملكُ اللّ َخميّ ُ فوا ِ لق َفاك َ خيرٌ من وجهه ولشِمال ُك خيرٌ من ي َمين ِ ولأخْم َص ُك خيرٌ من رأس ِه ول َخطؤك َ خيرٌ من صواب ِه ولعيّ ُك خيرٌ من كلامه ولخ َدم ُك خيرٌ من قومه " . وكقول ِ بعض ِ البلغاء في وصف اللسان ِ : " اللسانُ أداةٌ يظهرُ بها حسنُ البيان وظاهرٌ يخبر عن ِ الضمير وشاهدٌ ينبئ ُك َ عن غائبٍ وحاكمٌ يفصلُ به ِ الخطابُ وواعظٌ ينهَى عن القَبيح ِ ومزيّ َنٌ يدعو إ ِلى الح َس َن ِ وزارعٌ يحرثُ المودّ َة َ وحاصدٌ يحصد الضّ َغينة َ وم ُله ٍ ي ُونقُ الأسماع " .

فما كان َ من هذا وشبهه لم يجبْ به فضلٌ إ ِذا وجب َ إلا بمعناه ُ أو بم ُتون ِ ألفاظ ِه دون َ نظم ِه وتأليفه وذلك لأنه لا فضيل َة َ حتّى ترى في الأمر ِ م َصْن َعاً وحتى تجد َ إ ِلى التخيّ ُر ِ سبيلاً